

عوالم مغيبة في الكتابة الأدبية والروائية، ولها ثقلها في الذهنية العامة. نقرأ ما يلي: «دحمان الحجام بدوره كان يحمل عدة الحجاماة كل فجر ويتجه نحو الأسواق يبتني قيطوناً، يضع كرسيّاً ويعلق مرآة صغيرة بعمود القيطون ثم يهَيئُ الموسى وقرقرات الحجاماة لمص الدم الخاسر من القفا، وفي المساء يجلس بحانوته يستقبل أبناء المركز وجواره عبد السلام المأهول بتذكراته التي استفاقت بداخله خلال تلك المساءات المشبعة بظلال ذات رائحة عميقة» (ص ٧٩).

تلك أهم عناصر رواية رائحة الجنة، التي يتمظهر فيها الساردُ لتنظيم السرد أو لخلق مسافاتٍ بين حكايات الرواية، أو توصيف بعض الأحداث، أو فتح بياضات للشخوص الروائية للتعبير عن كيانه ومواقفها، واستثمار تجدد الزمن وتجذر نوحاته التاريخية والتخيلية، واستنفار طبقات الحكى الشفاهي والنداء والأغنية الشعبية، وغير ذلك من التقنيات والأوليات السردية التي يوظفها المؤلف.

مناقشة مداخلة غانمي عبد الرحمان

سعدتُ بقراءة عنوان المداخلة لأنني وجدته استعارياً وواعداً في نفس الآن. واعتقدتُ أن تفكير المحلل سيُتجه إلى وعي جديد وأصيل بماهية النص الروائي وبينية العالم التخيلي. وعجتُ في ذهني، لائحةً من الأسئلة التي تمنيتُ لو تمّ التطرق إليها: كأن يتساءل المحلل عن الروابط التي تجمع بين أحداث متفرقة ذُوِيَتْها الكتابة الروائية، في رائحة الجنة، لصالحها؟ وما هي الدلالة العامة التي تنتهي بتشكيلها؟ وما نوع العلاقة القائمة بين مستويات النص الأدبي (الروائي): هيمنة أم تكافؤ أم تفاعل؟ كيف تمت إعادة توزيع الأحداث (الواقعية أو المتخيلة) التي تكشف عن صور عديدة للماضي/الذاكرة؟ كيف فصل الروائي بين ماضي الأحداث وحاضر التخيل؟

لقد ركّز الأخ غانمي على العتبات والفضاء وعلى مكونات الحكاية وأنساغها (دون أن تستغرقه المقولات) بميلٍ إلى التحليل والوصف دون مبررٍ لتهميش المعنى. فإذا كنّا نؤمن، بدهياً، بأنّ الكتابة الروائية دمجٌ مستمر لعناصر مختلفة فعلينا أن نجيب على أسئلة مثل: كيف حوّل هذا النص الروائي كلّ هذه الحكايات والنوادر إلى بنية نصيةٍ خالصة؟ وكيف يمكن التمييز بين فعل التخيل وصنعة الكتابة؟ وهل وفّق الروائي في دمج وعيه بأوعاء شخصياته أم بقي على حيارٍ من ذلك؟ يبدو أن «تحليل» غانمي للفضاء بقي كما لو كان مجرد إطار نصيٍّ لترتيب الأحداث والأفعال، في حين أنّ الفضاء في رائحة الجنة فاعل/شخص استعاري منجرٌ لأفعالٍ تؤثر على المصائر وتساهم في تشييد العالم التخيلي للنص الروائي.

إنّ البحث في الحفريات يقتضي، كذلك، تحديد كيفية انتقال الكتابة من المنفصل الحدتي والفضائي والشخصي إلى المتصل وفق علاقات سببية أو تجاورية. وإذا كان الأمر، كما يرى الأخ، أن رائحة الجنة تستفيد من التاريخ الموازي، فما هي حدود التخيل، وما هي حدود التاريخ؟ ومن يؤوّل الآخر لصالحه: التخيل أم العالم الواقعي؟ إن الرواية العربية، والمغربية كذلك، قد حاولت الاستفادة منذ قرن، من الواقع والمعطيات التاريخية (الأرشيف أو التاريخ المحايث)، لكنّ استلهاً التاريخ أو التقاطع معه بقي، بالنسبة لكثير من الروايات، مجرد تخيل مهووس بتحليل انتريولوجي؛ فما الذي تهدف إليه الكتابة الروائية في رائحة الجنة: أهو إعادة بناء الماضي، أم مجرد الإشارة إليه؟

ما تبين لي من خلال قراءتي لـ زمن الشاوية ورائحة الجنة أنّ حليفي قد عثر على «كنز» ما زال يُخرج محتوياته بتكتم وبيبط وفق نمطيةٍ يمكن توصيفها كما يلي: إنّ فعل الكتابة الروائية تنوع مستمر على الموضوعة نفسها. وأعني، بذلك، المثلث التالي: الشاوية، وقبائلها والغزاة. إنّ هذا المثلث يكبح، كما هو ظاهر، توقعات القارئ ولا يسمح بتاتاً بتشديد عوالم تخيلية موازية. فعلى قارئ رائحة الجنة أن يعضّ أصابعه ندماً شأن أوديب إن لم يشأ أن يفق عينيه. فالحكاية (في الروايتين) لا تعدو أنّ تكون عملية خلط أوراق متشابهة تسوق قارئها بعامل وجهة النظر بين مرايا خادعة تقع بين البنى الخطابية وبنى الحكاية. ومع ذلك يلزم القارئ أن يحسن فهم هذه اللعبة لأن النص يحث عليها على مستوى القضايا الكبرى للحكاية.